الزنجية والضابط

قصة بقلم الطاهر وطار

فتح السائق العسكري الابواب الاربعة ، ثم سوى قبعته ، واعتدل في مقعده وأغلق بابه وشغل المحرك ، وقال لنفسه :

ـ الجنوب مغيم . زوبعة كبيرة في طريقنا . المهم ان يدعوني أسوق حسب متطلبات الطريق الوعرة .

قدمت الزنجية تتبختر في ثوبها الفضفاض ، وبادرت الى الخلف لتحتل المقعد اليميني ، دون ان تغلق الباب . سوت نفسها على المقعد، وفتحت حقيبة يدها ، وأخرجت المرآة ، وقارورة العطر ، وقالت لنفسها :

ـ سيارة العقيد ذاتها . يقين انه لم يمنحها للوفد من اجل الملازم، وانما من اجلي انا فقط . العقيد شخصية فذة ، وضابط طيب .. انف مستقيم . فم جميل . عينان كبيرتان . قامة رشيقة . ثقافة متوسطة . لولا هذه البشرة السوداء لخطبني اكثر من وزير .

اتى الضابط يتهادى ببدلته المكوية حديثا ، وبكتفيه العريضتين اللتين تزينهما نجمتان على اليمين ونجمتان على اليسار . قبعته في يده وبرنسه الوبري في ذراعه . شعر رأسه الكستنائي يلمع من بعيد . كان حليق الذقن ، مما زاد بشرة وجهه الحمراء احمرارا .

قصد الخلف بدوره ، واحتل الوسط ، وضغط بركبتيه قليلا على فخذ الزنجية وهو يضحك في انشراح :

ـ دعيني اغلق هذا الباب .

مد ذراعه ، وسحب الباب ، وتعمد ان يلامس صدرها . رفعت معصميها تتقي ذراعه ، لكن بعد فوات الاوان .

ـ أيكون متعمدا ؟

قالت لنفسها ، ثم أضافت :

ـ لونانا على طرفي نقيض . يريد ان يعبث ولا شك .

ـ كيف حال الاتحاد النسائي ؟

سألها ، فانبرت :

ـ الآن على احسن ما يرام . لو تدري كيف كان قبل ان اتولى مسؤوليته .

ـ أعلم . أعلم .

جاء الصحفي يجرجر قدميه ، بثيابه المتنافرة الالوان ، ومصورته المتدلية في صدره ، ولحيته الكثة التي لم تلامسها الشفرة منذ حل بالصحراء .

اتجه الى الخلف ايضا ، واحتل المقعد اليساري ، وقال لنفسه بعد ان حيا :

ـ الامور في نصابها . الشعب في اليمين ، والجيش في الوسط ، والاعلام في اليسار . بيد ان هناك خللا . الحزب ، حين يكون هناك جيش ، لا يجوز له ان يحتل المقدمة . السيارة وقائدها ، ورئيس الوفد ، كل ذلك عسكري ، في هذه الحال لا يكون دور التنظيم السياسي الا دورا تشريفيا .

بدا المسؤول الحزبي ، يحث الخطى ، وبدنه النحيف يتأرجح يمنة وشمالا . أطل على مؤخر السيارة وتساءل :

ـ هل أنتم هنا منذ مدة ؟

ـ هيا اركب فلم يبق سواك .

رد الضابط ، الا انه بدل ان يركب ، القى نظرة فاحصة على الوضع في المقعد الخلفي . وتساءل :

ـ لماذا تركتم لي المقعد الامامي . تعالي من هنا ايتها الاخت .

ـ لا . أخشى ان يغمى عليّ .

اجابته ، وهتفت في سرها :

ـ من جانب يكوّنون نقابة للنساء ، ومن جانب آخر يريدون الحفاظ على كل اوضاع النساء .

بينما ردد الضابط لنفسه :

ـ هذا الحمار ، ساءه ان تركب الزنجية الى جانبي ، هؤلاء السياسيون يتظاهرون بالبراءة والتقى ، بينما هم اكبر المخربين .

ورفع صوته :

ـ هيا اركب يا « سيدي » ، شرفناك بالقيادة وساءك الامر .

وعلق الصحفي في سره :

ـ عندما يتنازل الجيش عن القيادة المباشرة ، فيقين ان هناك ما هو أهم يشغل باله .

ركب الحزبي اخيرا ، وانطلقت السيارة ، تشق طرق المدينة ، لتخلفها في المنحدر ، ملتفة بالرمال ، وبالنخيل وبالقباب .

ـ ما هي المسافة ؟

ـ اربعمائة وسبعون كيلومترا .

رد الحزبي على سؤال الصحفي ، فقالت الزنجية :

ـ ألم تزر المنطقة قط ؟

ـ لا ، مع كل أسف .

ـ انها منطقة جميلة .

علقت ، فقال الضابط :

ـ صحفيونا ليس لهم من عالم سوى العاصمة .

وقال الصحفي لنفسه :

ـ وحتى في العاصمة غير مسمـــوح لنا سوى بمعرفة المطابع والمكاتب التي نعمل بها .

ـ سنبقيك عندنا . لن ندعك تعود الى العاصمة .

قال الحزبي ، فعلق الصحفي في سره :

ـ لاذكر اسماءكم وانشر صوركم . استطيع ان افعل ذلك دون ان اكون بينكم .

ثم التفت الى الخلف . بانت المدينة كقرح في قلب الصحراء . نصف مبانيها متشابك متداخل ، وكانه قشرة القرح ، والنصف الآخر متشعب في خطوط تعرض وترق ، كانه آثار قيح جافة ، النخيل يبـدو من فوق مغبرا ، وكانه لحم متورم ، آثار الملح تسطع من هنا وهناك ، في بيوضة مزرورقة .

ـ أتريد آخذ منظر ؟

سأله الضابط وهو يتململ في مقعده ، فأجابه :

ـ لا داعي . شكرا . قد تتجلى في العودة اجمل .

انحدرت السيارة ، وسرعان ما اختفت المـدينة خلف الربوة . كانت الطريق تبدو ممتدة في خط مستقيم على بعد عشرات الكيلومترات، مما اثار السأم في نفس الصحفي ، ودفعه الى الالتفات يمينا ويسارا.. دخان آبار النفط يصاعد على بعد بضع كيلومترات مضفيا على الجو المتلبد كثافة وثقلا ، مع الارض الرمل ينموج كالجراد ، متنقـلا دون غاية محدودة .

ـ لا شيء يجذب الانتباه في الخـارج . الصحراء كالشعب ، ينبغي ان تتأمل من الداخل .

عاد ببصره الى السيارة .

السائق يتظاهر بالانهماك مع المقود ، بينما يسترق من حين لآخر، نظرة الى المرآة ، ليتأمل ركاب الخلف .. الضـابط يهم بالزنجية . لو بقيت في المدينة لبت الليلة مع زوجته . تقد كلف العريف الاقرع بخدمة منزله اثناء غيابه ، لن يفلت منها مع ذلك .

الحزبي وضع نظارة سوداء على عينيه ، واسند رأسه الى الخلف.. أيها الشعب . ايها الشعب الكريم . ايها الشعب البطل . لاول مرة في تاريخكم . لاول مرة في تاريخنا . في تاريخ بلادنا المستقلة تعود السلطة الى الشعب . الانتخابات البلدية . معناها .. البلدية معناها الثورة من الشعب والى الشعب .. نفس الخطاب الـذي ألقاه أمس وأول أمس ، ولكن مع ذلك ، فالخطاب الجيد ، هو الذي يعد قبـل الالقاء . المسافة بعيدة ، والطريق طويلة .. وسأحفظ الجمل المؤثرة . هذا الصحفي الابله ، يجب ان يكتب مقالا قيما عن الصحراء .

الزنجية وضعت كفها على خدها ، وأدارت وجهها الى زجـاج النافذة كما لو انها تتأمل الافق البعيد الذي يصاعد منه الرمل ودخان آبار النفط .. المسؤولون الكبار في بلادنا يتزوجون بالاجنبيـات . لم تتزوج قط مسؤولة في الاتحاد النسائي سواء على المستوى الوطني او الجهوي بمسؤول .. لعلهم لا يرضون بنا حتى خادمات في منازلهم . مع ذلك فقد حاول اكثر من واحد ، في اكثر من مناسبة ، ان يتغزل بي .. كانوا لا ينظرون الى وجهي ولا الى عنقي الطويل ، وانما الـى صدري البارز ، وخصري الضامر ، وعجزي الممتلىء . كانت الشهوة تصرخ في عيونهم .. يريدوننا جواري يتسررون في المؤتمرات .. هذا الملازم واثق من انني مهيأة له . تزين وأعد نفسه لليلة زفاف ، زوجته اعرفها . انا اجمل منها رغم سواد بشرتي . متغطرسة متعنصرة ، كلما رأتني سألتني هل وجدت لها فتاة زنجية تربيها . تريد امة .

الضابط ما ينفك يداعب شاربيه بأصابع يده اليمنى . ويحرك مرفقه في حركة يحاول ان تظهر عفوية . لمس مرة فخذ الزنجية ، فاعاد نفس الحركة ، لكن لم يجده .. كنت اراها باستمرار تمر امام الثكنة الى مدرستها أو الى مقر منظمتها ، على دراجتها ، وكنت ارغب فـي التحدث اليها ، لكن الفرصة لم تواتني .. في الحفل الاخير للسلطات المحلية ، تقربت منها ، فانشغلت عني بالنقيب .. سترى الليلة أي نقيب ، وأي عقيد آنا .. كلهن عواهر ، يتظاهرن بالطهر والنقاء .. عندما ركبت داعبت فخذهـا فلم تتحرج .انها بدورها تتشهاني . انـا اجمل ضباط الناحية اجمعين .. اذا ما حاول آن يزاحمني فيهـا أحد هذين القردين ، فسأوثقهما مع الاسرة ، او آزج بهما في غرفة وأغلـق عليهما الباب .. لن نصل ، ولن ينقضي المهرجان ، ولن يأتي المساء ، الا ونكون قد اتفقنا . تكون الفاكهة قد نضجت .. واو انني على يقين من انها ناضجة قبل اليوم .

الصحفي متقوقع على نفسه ، يفكر في اتكل .. يندر في العالم الثالث ، ان يكون لهم وجود مجتمع .. الشعب والجيش والسياسيون والمثقفون .. مياه النهر تتخذ عدة مجار قبل ان تصل الى المصب .. انهم يبنون سدا ، وفي نفس الوقت يحفرون قنوات على جـوانب الانهار ، حتى لا يصل الماء الى السد . الزنجية عمليا ونظاميا ، تحت مسؤولية الحزب .. والحزبي اخلاقيا وسياسيا ووفديا تحت مسؤولية الضابط . انا من ناحية على الهامش ، بحكم انني قادم من العاصمة . ولكنني من ناحية أخرى محكوم عليّ بانكتابة عن نشاط الوفد . انا بدوري اخلاقيا ووفديا ومهنيا تحت المسؤولية المعنويـة للضابط .. افريقيا . آسيا . اميركا اللاتينية . اسبانيـا . الشعب . الجيش . السياسيون . المثقفون . لو لم يكن هذا الضابط ضابطا ، ولو لم تكن هذه المرأة زنجية ، ولو كـان الحزبي رئيسا للوفد ، ولو كنت اكتب عن ايمان وافتناع ، لكانت سيارتنا هذه جزيرة عائمة في اعماق الصحراء وكانها كوبا .

ـ انك تسرع اكثر من اللازم .

خاطب الضابط السائق ، ففكر هذا الاخير : لطالما طلب مني ان أسرع مهما كنت اسرع . ثم رفع صوته :

الجنوب مغيم . ستضطرنا الزوابع الرملية الى التمهل ، وعلينا ان نسبق تراكم الرمال في الطريق .

ـ كم أود رؤية هذا المنظر .

قال الصحفي ، فعلق الحزبي مشمئزا :

ـ لا أراك الله هذا المكروه .

ـ انا بدوري احب الزوابع الرملية عندما اكون داخل السيارة . انها تبكي قلبي .

اضافت الزنجية ، فاغتنم الضابط الفرصة ، ووضع يده عـلى ركبتها قائلا :

ـ بامكاني ان ابكي قلبك المسكين ، لا بالدمع فقط وانما بالدم ، سترين عندما ابكيه فعلا ، ان تأثيري أقوى من تأثير الزوابع الرملية.

لجأت الزنجية الى الصمت ، بعد آن رفعت في رفق يد الضابط عن ركبتها ، وفكر المسؤول الحزبي .. اذا ما فتح الضابط البـاب العسير فسألجه بدوري . كم مرة سخرت مني .

وتساءل الصحفي

ـ اتقولين الشعر ؟

ـ في الغيم وسط الزوابع الرملية .

ردت الزنجية بسرعة ، ثم قالت لنفسها :

ـ للمرة الثالثة يحاول ان يطل على اعماقي . في المرة الاولـى سألني ، هل أشعر بالضيق في هذه المدينة ، وفي المرة الثانية سألني أي نوع من الكتب اطالع ، وها هو يمسك بطرف خيط رفيق : شاعرة.. هو الذي اقترح عليّ ان انضم الى الوفد الذي يسافر معه . لم ينظر الى صدري او خصري او عجزي قط . كان يسترق النظر الـى عينيّ ويطرق .

تجلى من بعيد ، على يسار الطريق ، مبنى نصفه ابيض ونصفـه

رمادي ، وحوله مروحة بئر .

ـ رحمة في هذا الوكر . الوحيد من نوعه في الصحراء ، أقامه أخوان مغامران في هذا الخلاء . يتوقف عنـــده المسافرون ليتزودوا بالاكل والشرب ، وخاصة بالماء للسيارات وللاطفال . قبل انشـــائه كنت تجد السيارات معطلة على طول الطريق .

قال الحزبي ، فسأله الصحفي على الفور :

ـ ومن بناه ؟

ـ البئر خلفها الاستعمار ، والغرفة الوحيدة تعاون الاخوان على بنائها بالحجر الذي كانا يلتقطانه من مسافات طويلة . اما الهيكـــل الخشبي الذي حولاه الى سكن ، فقد اشترياه من شركة نفط ، بعـد ان انقلبت الشاحنة التي كانت تقله ولم يعد صالحا لها .

راح الحزبي يشرح للصحفي في تباه ، تفاصيل الوكر والاخويـن المغامرين ، واستغل الضابط الفرصة ليحاول أكثر من مرة الصـــاق فخذه بفخذ الزنجية ، التي لم تكن تمانع بشكل واضح .

ـ كان المفروض ان تقيم شركات النفط ، مراكز عديدة من هـــذا النوع ، توزعها على من يريد استغلالها .

قال الصحفي ، فبادر الضابط :

ـ كم أتمنى مراكز فيها مسابح ، على طول الطرق الصحراوية .

ثم التفت الى الزنجية وتساءل في رقة :

ـ أتحسنين السباحة ؟

حركت رأسها يمينا وشمالا ترد بالنفي ، فبادرها

ـ في وسعي أن أعلمك السباحة في ربع ساعة فقط .

فكرت قليلا ، ثم هتفت في تصنع واضح :

ـ أوه . كم أود ذلك !

ـ عندنا مسبح في نادي الضباط .

ـ لكنه مخصص لكم وحدكم .

ـ لا . لن يمنع عن امثالك . في وسعي ان اخصصه للاتحـــاد النسائي مرة في الاسبوع .

ـ انوي السفر الى الخارج في الصيف القادم .

ـ ارافقك .

ـ من هنا الى الصيف يحدث الله امرا .

ـ لا بد ان نتوقف للتزود بالماء ، فما معي غير كاف في حالة ما اذا غرقنا في كوة رملية .

قطع السائق الحديث بين الضابط والزنجية ، وشق الرمل بعد ان انعرج يسارا ، وتوقف عند مدخل الوكر .

ـ لنتناول مشروبات ونسترح قليلا . فالمسافة ما تزال طويلة .

قال الحزبي ، فهتف الضابط :

ـ فكرة رائعة . هذا هو دور الحزب في الحقيقة .

قاد الضابط الزنجية الى طاولة متهرئة متسخة متداعية ، وانضم اليهما الحزبي ، واتجه الصحفي الى المشرب .

ـ أريد ((بيرة)) .

قال الضابط ، وابتسم الحزبي ، فرد النادل :

ـ ممنوع . كل مساء نتعرض لتفتيش من طرف رجال الدرك .

ـ ولماذا لا تطلبون رخصة ؟

ـ البلدية تمانع .

ـ حسنا ، تعال في الاسبوع القادم الى المدينة وستعود برخصة. لا . سآمر شيخ البلدية بأن يرسلها اليك ، أو يحملها هو نفسه .

ـ شكرا . شكرا . ربي يعزك . اذا كنت حقا تريد شرب ((بيرة)) فتعال معي الى غرفة نومنا .دفنتفيالرمل ثلاث قنينـات لاستعمالي الشخصي .

ـ صب واحدة في طست وهاتها . وانتم ماذا تشربون ؟

ـ قهوة .

قال الحزبي ، بينما تمتمت الزنجية :

ـ شاي .

عندما عاد الموكب الى السيارة ، كانت الابواب الثلاثة مفتوحة . احتل الضابط الوسط ، واستلقى الصحفي الـــى اليسار ، ووقف الحزبي في انتظار الزنجية التي تعمدت التخلف .

ـ لعلك ترغبين الركوب في الامام ؟

ـ يا ((سيدي)) دعها تتصرف في أمرها .

بادره الضابط ، فابتسم وردد في خجل :

ـ ((ولية)) معنا ، يجب ان نوفر لها افضل الشروط .

ـ اريد ان اركب الى جانب الصحفي ، لاقرأ له بعض اشعاري .

قالت الزنجية وهي تفتح الباب ، وتنتظر أن يخلى لها المكان . تغلب الضابط على تأثير المفاجأة في نفسه ، رغم الدم الذي تصاعـد الى وجهه ، وراح يحتج دون أن يتزعزع من مكانه

ـ ولماذا الصحفي وحده ؟ اقرئي شعرك علينا جميعا . هيا عودي الى مقعدك .

ـ لعلك يا حضرة الضابط تريد أن تأتي الى المقعد الامامي .

ـ لا . لقد قررنا ان القيادة للحزب .

ـ يجب ان نسرع .

قال السائق في تضايق ، فاقحمت الزنجية نصفها فوق الصحفي، وراحت تحتج :

ـ أتريدون تركي هنا ؟ دعوا لي مكانا معكم .

ـ لن أعلمك السباحة ، وسأبكي قلبك بعنف الليلة .

قال الضابط ، يبرر تزحزحه من موقفه امام اصرار الزنجيـــة واستغاثات الصحفي ، الذي ما ان انطلقت السيارة ، حتى ردد فـي سره :

ـ هذا هو الوضع الصحيح للمثقف في العالم الثالث : المأزق بين الشعب الشاعر ، والجيش الحاكم .

في حين راح الضابط يتمتم في انفعال ، وقد بدأ مفعول قنينات الجعة الثلاث في رأسه :

ـ ليس لها مفر مني . تن تفلت مهما حاولت . سآمر مدير النزل بأن يسكن القردين في جناح ، وان يسكننا نحـــن في آخر . أريد غرفتين متصلتين ..

اما الحزبي ، فقد راح يقنع نفسه :

ـ لم يفلح الضابط الوسيم مع الزنجية . عنود . تبحث عـــن الزواج . خطبها اكثر من واحد فرفضت . تريد أن تتزوج من ابيض ثري ، او من مسؤول . اللعينة تتظاهـر بصيانة شرفها ،لكن مع ذلك لا بد ان تكون عاشقة . في مثل سنها ، في الثانية والعشرين ، وبمثل تحررها وانطلاقها ، لا بد ان يكون لها خليل . انها تم تلجأ الـــى الصحفي ، وانما هربت من الضابط .

ضم الصحفي ركبتيه الى بعضهما ، حتى لا يضايق المرأة فـــي جلستها ، ومدد ذراعيه ، حتى لا يلامس مرفقه صدرها المائل نحوه ، وشعر للحظات طويلة ، بدقات قلبه تتضاعف ، وبكثير من المضايقـــة والحرج ، ولام نفسه غير ما مرة هذا شأننا نحن المثقفين ، حيـــن تؤول الامور أحيانا ، نتردد ،ونغرق في التفكير.ولكنأي امر آل اليّ؟ زنجية ضايقها ضابط فوضعتني بينها وبينه . هذا كل ما في الامر . لكنها قالت انها تريد ان تقرأ الاشعـــار على الصحفي . ذاكم تبرير لا غيـــر .

بدأت كوم من الريح الصفراء ، تتبدى من هنا وهناك ، وخيوط رقيقة من الرمل تزحف في اتجاه الشمال ، قاطعة الطريق ، وكأنهـــا أسراب من الاغنام راكضة ، فقطع الصحفي حبل الصمت الذي امتـد حوالي الثلاثة ارباع الساعة :

ـ أهذه هي الزوابع الرملية ؟ انها غير مخيفة كما تذكرون .

ـ هذا نذيرها لا غير ، عندما نستدير الى الجنوب ترى .

قال السائق ، فاضاف الحزبي :

ـ سترى هول الصحراء بأم عينك .

واضاف الضابط :

ـ لا يبكي قلوب العذارى الا الامر الكبير .

وقالت الزنجية :

ـ الزوبعة الرملية ، هي الحزن اتخانق ، هي الاسى العميق .

ـ اود ان ارى هذا الشيء .

قال الصحفي ، فبادره السائق :

ـ لا نفصلنا عنه الا مسافة نصف ساعة . لقد لمحته في الصباح من المدينة . لا شك انه يسير نحوها .

انعرجت السيارة الى اليسار ، وانحـــدرت لتوها في منخفض متعرج ، محاط بكوم من صخور دكناء متخددة ، وكأنها هاربة منجهنم ، حيث كانت نفلي منذ الازل .

بدأت السيارة تتمايل . شد الصحفي نفسه الى المقعد ، حتـى يتفي التدحرج على الزنجية التي اربخت في لامبالاة ، ولا على الضابط الذي التف في برنسه الوبري ، وأسدل جفنيـــه ، ومن حين لآخر ، تبدو من رأسه نصف سقطة الى الامام فيتفادها ، بينما كانت رائحة الجعة المنبعثة منه ، في صراع مع رائحة العطر الذي ما انفكت الزنجية تعبق به أبطيها .

انبعث الشخير من الضابط ، فقاوم الصحفيالنوم الذي اعتراه ، ثم ليس يدري كيف كان رأســـــه ينخفض حتى يكاد يبلغ ركبتيه ، لينتفض ويعيده الى موضعه .

مدت الزنجية ذراعها مع حافة المقعـــد ، وتناولت رأسه برفق ، ووضعته على صدرها ، فاستسلم الى النوم .

التفت الحزبي . أبتسم للزنجية ، ولمنظر الصحفي النائم كالطفل، وألقى نظرة على أوداج الضابط المنتفخة .

ـ أعن به . انه حضري .

فتح الضابط عينيه ، وألقى نظرة على المنظر ، وابتسم بدوره . انتزع برنســـه ، تغطى بجناح وألقى الجنـــاح الآخر على الصحفي والزنجية ، ومد يده في جرأة الى اصابعها ، وراح يتأملها في نهم .

ـ دعه يتقدم خطوات اكثر . لقد حطم وقاره كرئيس للوفد ، وهتك ستر الاحترام الذي يجب ان يحظى به كضابط . سألقنه درســـا ، وسأحاول تحطيمه .

قالت الزنجية في نفسها ، وكأنما تبرر التلاؤم مع الوضع الـذي يحيط بها ، ثم مدت يدها الى وجه الصحفي وراحت تمررها علىخده ، غير مبالية بالضغط الذي بدأ الضابط يمارسه على يدها الاخرى .

ـ حاذر . كومة رملية تتجلى لي في المنعرج .

ـ رأيتها .

رد السائق على الحزبي ، ورفع قدمه على السراع ، ووضعهـــا فوق المكبح ، وراح يضغط في لين .

كانت الكومة الرمليه كبيرة الى حد ما خاصة في الوسط حيث يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثة ارباع المتر . لـم يبق بينها وبين السيارة الا مائة متر ، فانزعج الضابط وصرخ في السائق :

ـ حبس . حبس . ستقتلنا .

ـ كلا . الحل الوحيد لكي لا نغرق في الرمل ، هو ان نمر عليه بأسرع ما يمكن .

قال السائق ، وضغط بقوة على السراع ، وهرب بالسيارة الى أقصى اليسار ، وشد بعنف على المقود . ارتفعت السيارة وانخفضت وواصلت الطريق .

ـ ما هذا ؟

انتفض الصحفي متسائلا في انزعاج ، فتشبثت الزنجية برأسه تعيده الى صدرها مطمئنة :

ـ لا شيء . كومة رمل اجتزناها .

النفت الى الخلف يتأمل الكومـــة التي سرعان ما اختفت في المنعرج ، وتساءل في اندهاش :

ـ كل هذا الرمل اجتزناه دون ان نغرق ؟

ـ الحكمة . هذه الحكمة .

قال الحزبي ، فعلق الضابط الذي كان قد سحب في مضض يده من يد الزنجية :

ـ معنا امهر سائق . سائق العقيد ذاته .

ـ وكيف لم نغرق يا سائق العقيد ؟

ـ كلما كانت السيارة تجري بسرعة خف وزنها . كان ممكنا ان تنقلب بنا ، لذا هربت الى اليسار حتى لا نسقط في الهاوية في حالة الانقلاب ، وفي الحق ، كوم الرمل التي تضعها الريح في الطريـــق حبة بعد حبة ، صلبة كالاسمنت . لكن مع مرور السيارات ، وخاصة الشاحنات ، تصير مزعجة بشكل كبير .

ـ وكيف عرفت كل هذه القواعد ؟

ـ بالتجربة . سقت كثيرا شاحنات وعربات الجيش قبـــل ان يختارني العقيد .

لم يعد ذهن الصحفي منشغلا البتة بجسد الزنجية الملتصق به ، مشعا بحرارة عجيبة ، ولم يعد يفرق بينها وبين الضابط . انما ود لو يلقي نظرة على عينيها .

التفت أولا الى اليمين ، حدق قليلا في الكتل الصخرية المخددة السوداء التي بدأت تقل شيئا فشيئا ، كلما توغلت السيارة فـــي الطريق ، وكلما قلت المنعرجات ، وألقى نظرة على الوادي الجـاف ، الذي راح يضيق كلما بقي الى الخلف ، ثم ألقى نظرة خاطفة عـــلى الضابط المتثائب ، والتفت اخيرا الـــى اليسار . الحافة الصخرية تنحدر ايضا ، الكثبان تبدو من بعيد وسط القيم الاسود ، كأنها في صراع مع بعضها . رفع بصره أخيرا الى عيني الزنجية . ارتسمتبسمة جميلة على شفتيها ، وجمدت في هيئتها كأنما هي امام مصور ، بينما راحت عيناها تنفتحان في بطء ، وكلما اتسعت حدقتاها ، اغرورقتـا بالدموع .

ـ ها هي الزوبعة الرملية .

قال الحزبي ، وهو يشير باصبعه الى الامام . فالتفت الصحفي لحينه . غشاء أسود متموج في حركة بخارية بطيئة يقوم على بعد عدة كيلومترات ، ويمتد على عرض لا متناهي . ألقى نظرة على وجه السائق فألفاه أزرق ، وفكر : كأنما على أهبة الدخول الى غرفة الاعدام . نظر الى الحزبي فوجده يسوي النظارات على عينيه ويخرج من المحفظـة شاشا (١) متسخا ، يلفه على رأسه ويتلثم به .

ـ القضية جدية .

قال لنفسه ، والتفت الى الضابط الذي بادره :

ـ تدثر جيدا بالبرنس .

ثم مد يده وراح يسوي جناح البرنس على الزنجيـــة ، متعمدا لمس الاجزاء الحساسة من بدنها .

ـ تدثري يا أخت . حان لقلبك ان يبكي . سيبكي الليلة اكثر .

ابعدت الزنجية يده في انفعال ، وسوت البرنس عـلى عنقها ، وعلى صدر الصحفي ، ثم ألقت رأسها الى الخلف .

ما ان بلغت السيارة الزوبعة الرملية ، حتى غرقت في السواد ، وراحت تشق الطريق في بطء ملحوظ ، كانت ملايين حبات الرمـــل تصطدم بها من كل جانب وفي كل موضع ، فتحدث دقات ونقرات سريعة

(١) عمامة .

تبعث القشعريرة في الجسد ، وكانت الريح التي لا يستطيع احد حصر اتجاهها ، تمر عليها مفردة ، مجزبه ، مثيرة للاهتياج . وكان الغبار يتطاير في الداخل ، رغم النوافذ المغلقة ، مستهدفا كل اجزاء الاجساد الخمسة . وكان الضغط يقوى شيئا فشيئا ، فراحت الانفاس تتصاعد وتنخفض في اختناق .

ـ الخطر كل الخطر من الاحتراق .

قال السائق ، فانبرى الصحفي :

ـ الاحتراق ؟

ـ الكهرباء . الزوابع الرملية مشحونة بالكهرباء .

همس الحزبي من خلال اللثام ، ففكر الصحفي : الاحتكاك ، والاصطدام ، والضغط . بالفعل ، يمكن ان نلتهب بين لحظة وأخرى .

كانت الانفاس تختنق اكثر فاكثر ، وكان الصمت هو رغبة الجميع، وكانت الاعصاب تتوتر لحظة بعد اخرى ، ومع ذلك فقد كان اثنان من بين الركاب الخمسة ، يودان ان لا ينقطعا عن الحديث .. السائق يعتريه شعور من يسير في الظلمة الحالكة ، والصحفي تنظر في ذهنه أسئلة كثيرة ، تهدف الى تجسيد التجربة عند الآخرين بالاضافة الى المعاناة الداخلية .

ـ لماذا لا نتوقف حتى تهدأ ؟

تساءل ، فسارع السائق يجيبه :

ـ الا ذاك . قد يلفنا الرمل ويتكدس علينا . الطريق ايضا قد تنغلق امامنا .

ـ اسمحوا لي أن أطلب منكم ان تصمتوا .

قالت الزنجية وفي صوتها نبرات الاسى . فقهقه الضابط قائلا :

ـ الشحنات الكهربية تحمل اخبارا .

ـ صه .

صرخت فيه ، وتمتم الصحفي :

ـ بل اشعارا .

بينما راحت الزنجية تقرأ مغمضة العينين ، كلاما لا يشبه الشعر ولا النثر :

ـ « عندما يدلهم الظلام . وعندما لا يبقى هناك مجال للرؤية . ويستيقظ الشياطين والخفافيش ، واللصوص من كل نوع . اطفىء بدوري الشمعات في الداخل ، وأعرى لارقص وارقص . ارقص في الظلمة ، بدون موسيقى ، الا ما يصطخب في أعماقي ، ارقص للشياطين . للخفافيش . للصوص وقطاع الطرق . ارقص للملائكة ايضا، ولكل من يرقص مثلي . حتى أسقط مغميا عليّ . وعندما افتح عينيّ . أجد النور يعم كل شيء . بيد أن السواد طال . وها انني أرقص عارية منذ أزمان . دون ان اسقط مغميا عليّ » .

ـ جميل . رائع .

هتف الصحفي ، وتمتم الضابط :

ـ هذا قرآن مسيلمة .

ـ بل تسابيح رابعة العدوية .

أضاف الحزبي .

ـ صه .

زمجرت الزنجية . فرفع الصحفي عينيه اليها . كان شعر رأسها الاشعث قد انسدل على كتفيها ، وكانت الدموع منهمرة من عينيها الكبيرتين . وكان العرق يتصبب من كامل وجهها ، وكانت ذرات الرمل قد كست معظمه .

ـ ما عنوان القصيدة ؟

سألها ، فتحت عينيها ، وحدقت فيه . ظل يغوص في سوادهما وفي بياضهما .

ـ لا أعطي العناوين لاشعاري .

ـ اسمحي لي ان اسميها : صمت الثورة .

ابتسمت ، وتناولت وجهه بين راحتيها ، وراحت تدني ، في بطء ، وجهها منه . لفحته أنفاسها . أغمض عينيه ، وأحس بشفتيها تلامس جبينه ، والتقطت أذناه صوت قبلة هادئة .

ـ ما هذا ؟ ما هذا ؟ أحتج باسمي الخاص وباسم الوفد .

قال الضابط ، ثم حدث نفسه :

ـ هذه تحية لي ، أنها تعامله كما لو كان طفلا . اعرفهن . أعرفهن .

ـ هذا تحدّ صارخ ، معارضة علنية .

قال الحزبي دون ان يلتفت ، وقد احمرت اذناه وقفاه ، فاردف الضابط :

ـ بل مسّ بالامن العام . هذه مؤامرة . أصدر في حق الصحفي الحكم بكتابة مقال جيد عن كل نشاطنا ، وأصدر في حق الآنسة الحكم الذي نعرفه ، مع التنفيذ العاجل . الليلة .

وملا السيارة بقهقهة صاخبة ، وتبعه الحزبي بضحكة مفتعلة ، وأطرق الصحفي ، في حين أغلقت الزنجية أذنيها بكلتا يديها ، وما ان عاد الهدوء الى نصابه ، حتى انبرت بصوت خافت ، وكأنما تناجي الصحفي :

ـ « النزيف الكبير . ذاكم الذي لا موضع لنبعه ، لا ولا لمصبه . اعذب نزيف . لانه اصل كل الفصول . الشتاء والصيف . الربيع والخريف . وانا في اعماقي نبع . في اعماقي نبع نزيف . تاه الغائصون في ادراكه ، وتاه الظامئون في الاهتداء الى مصبه ، اوحى الى مجراه . انه مخصص لفارس همام ، يخرج من امواج المحيطات او ينزل من زوابع رملية فوق الركام ، يشق بسيفه اللحم والعظام . ويصل شرايين قلبه بنبع النزيف . ويرتوي في كل الفصول . في الربيع والخريف . في الشتاء والصيف » .

ـ عظيم . عظيم .

هتف الصحفي . وردد الضابط ساخرا :

ـ لن يكون هذا الفارس الهمام سواي . سترين .

واردف الحزبي :

ـ غريبة . لم يسمع أحد انك تحاولين قول الشعر .

وقالت الزنجية في سرها :

ـ لم يركب معي احد مثل هذه الزوبعة ، حتى يسمع بكاء قلبي ، ولم يغص مسؤول في عيني ، ليقرأ الشعر . انه له وحده .

ـ ما عنوان هذه القصيدة ؟

سألها الصحفي ، فهمست في أذنه :

ـ اعطها اسما . انها ابنتك .

وفكر ملياً ، هل يستعمل لفظة صدى ام عبارة رجع ، مضافة الى السجون ، وقبل ان يقرر ، كان السائق يوقف السيارة ..

ـ الماء . الماء .. نفد الماء من الخزان . حرارة المحرك ترتفع . لا بد من اعانتي على مسك غطاء المحرك والا اقتلعته الزوبعة .

نزل الضابط والحزبي والصحفي ، وراحوا يتشبثون بالسيارة حتى لا تدفعهم الزوبعة ، والتفت السائق الى الزنجية مبتسما :

ـ كلكم . لا يستطيعون وحدهم .

لمح الضابط الزنجية تتاهب للنزول ، فبادر يفتح لها الباب .

رفعت بصرها اليه ، فوجدته يبتسم :

ـ تفضلي يا اميرة الصحراء .

ـ شكرا .

تشبث بالسيارة بيد ، وطوق خصرها بيد اخرى ، وراح يتلمس الطريق نحو مقدمة السيارة . لم تمانع الزنجية ، ولم تقو على فتح فمها ، وظلت تتشبث به . وتدفع قدميها في اناة بينما عيناها مغمضتان .

ـ أريدك الليلة . تطالما تشهيتك .

همس في أذنها ، وهو يضمها اكثر ، فردت عليه :

ـ حتى نسافر الى الخارج .

ـ لا . الليلة ، وكل الليالي القادمة . سأرسل زوجتي الى الشمال .

ـ دع باب غرفتك مفتوحا . سآتيك على الساعة الثانية .

ـ ولم الساعة الثانية ؟

ـ عيد ميلادي الليلة . ولدت في الساعة الثانية صباحا . اريدك في تلك اللحظة ..

ـ طيب . كم أنت جميلة !

ـ تشبثوا جيدا كلكم بالغطاء .

قال السائق فامتدت الايدي الى الغطاء الذي راح يرتفع شيئا فشيئا ، رغم قوة الزوبعة .

عند اركوب ، فتح الضابط الباب الامامي ، وألقى بالزنجية في المقعد وأغلق عنها ، هاتفا بالحزبي :

ـ الى الوراء در .

* * *

مرت الساعة الثانية ، فالثانية وربع ، وعندما بلغت الثانية والنصف ، نهض الضابط الذي لم يذق طعم النوم . تقدم الى الباب حافيا ، فتحه برفق . خرج الى الرواق ، ومشى على رؤوس اصابع قدميه نحو غرفة الزنجية . فتح الباب فانفتح . أشعل مصباحه اليدوي الصغير . جال بنوره الخافت في الغرفة فلم يجد لها اثرا . الزنجية لم تدخل فراشها قط . انه ما يزال على ترتيبه في النهار .

اين تكون ؟

اسرع الى غرفة الحزبي ، ارسل نوره الخافت الى السرير ، انه يغط في النوم .

أين تكون ؟

قصد رأسا غرفة الصحفي ، وقد بلغ به الحنق الاوج . النور يشع من تحت الباب .

انها هنا . الليلة أقتلهما وأشرب دمهما .

بلغ أذنيه صوت يرتل الشعر ، في نبرات حزينة . انتظر لحظات حتى هدأت دقات قلبه . مد يده الى الباب ، فتحه في رفق . أقحم رأسه وفتح فاه مشدوها .

الزنجية فوق أريكة على السرير ، في ثياب نوم بيضاء ، ترتل مغمضة العينين . الصحفي عند قدميها يتربع على سجادة فوق الارض . كان منهمكا في الكتابة .

الجزائر (تكجدة) **الطاهر وطار**

مجموعة ديوان العرب

تصدر باشراف لجنة من المحققين

الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت

صدر منها	ق.ل.
١ ـ ديوان المتنبي	١٠٠٠
٢ ـ « ابن الفارض	٥٠٠
٣ ـ « عبيد بن الابرص	٤٠٠
٤ ـ « امرىء القيس	٤٠٠
٥ ـ « عنترة	٥٠٠
٦ ـ « عبيدالله بن قيس الرقيات	٦٠٠
٧ ـ « ابي فراس	٧٠٠
٨ ـ « عامر بن الطفيل	٣٥٠
٩ ـ « الخنساء	٣٥٠
١٠ ـ « زهير بن ابي سلمى	٣٠٠
١١ ـ « النابغة الذبياني	٣٥٠
١٢ ـ « ابن زيدون	٦٠٠
١٣ ـ « ابن حمديس	١٥٠٠
١٤ ـ ديوان جرير	١٠٠٠
١٥ ـ شرح المعلقات السبع للزوزني	٣٠٠
١٦ ـ سقط الزند لابي العلاء المعري	٦٠٠
١٧ ـ اللزوميات لابي العلاء المعري جزآن	٢٥٠٠
١٨ ـ ديوان الفرزدق جزآن	١٧٥٠
١٩ ـ « الاعشى	٥٠٠
٢٠ ـ « اوس بن حجر	٥٠٠
٢١ ـ « جميل بثينة	٣٥٠
٢٢ ـ « الشريف الرضي جزآن	٣٠٠٠
٢٣ ـ « طرفة بن العبد	٢٥٠
٢٤ ـ « عمر بن ابي ربيعة	٨٠٠
٢٥ ـ « حسان بن ثابت الانصاري	٥٠٠
٢٦ ـ « ابن المعتز	١٠٠٠
٢٧ ـ « ابن خفاجة	٦٠٠
٢٨ ـ « البحتري جزآن	٢٠٠٠
٢٩ ـ « ترجمان الاشواق لابن العربي	٥٠٠
٣٠ ـ « صفي الدين الحلي	١٧٥٠
٣١ ـ « ابي نواس	١٥٠٠
٣٢ ـ « حاتم الطائي	٢٥٠
٣٣ ـ شرح ديوان المتنبي لليازجي جزآن	٢٠٠٠
٣٤ ـ جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي	٧٠٠
٣٥ ـ ديوان بهاء الدين زهير	٨٠٠
٣٦ ـ ديوان ابي العتاهية	١٠٠٠
٣٧ ـ ديوانا عروة بن الورد والسموأل	٣٠٠
٣٨ ـ ديوان ابن هانىء الاندلسي	٨٠٠
٣٩ ـ ديوان العباس بن الاحنف	٦٠٠
٤٠ ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري	٥٠٠